الجزء ١

أين الله؟

أُصيبَ والدي بشَلَلِ الأطفال قبَيلَ عيد ميلادي الأوَّل. استَلقى مشلولًا من الرقبة فما دون غير قادرٍ على الحركة في جهاز التنفُّس الاصطناعيِّ الصاخب الذي كان يساعده على التنفُّس. كانت والدتي تحضرُني أنا وأخي البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى المستشفى، وتحملُنا إلى نافذة الجناح المعزول ليتمكَّنَ زوجُها عبر النَّظَر في مرآةٍ أن يلمَحَ ولدَيه اللَّذين لم يكُنْ يستطيعُ أن يحملَهما أو يلمسَهما.

كان والدي يستعدُّ للذَّهاب إلى أفريقيا مُرسَلًا. وعندما أُصيب بالمرض، قرَّر بضعةُ آلافٍ من الأشخاص أن يُصلُّوا من أجل شفائه في حلقاتِ صلاةٍ متتابعة. لم يستَطيعوا أن يصدِّقوا أنَّ الله "سيأخذ" شخصًا شابًّا مفعمًا بالحيويَّة مثله ينتظرُه مستقبلُ خدمةٍ مشرقٌ. في الواقع، صارَ أقربُ المقرَّبين إليه مقتَنِعين بأنَّه سيُشفى حتَّى إنَّهم قرَّروا بعد موافقتِه أن يمارسوا خطوةَ إيمانٍ ويُخرجوه من جهاز التنفُّس الاصطناعيّ. في غضون أسبوعَين تُوُفِّيَ والدي. نشأتُ يَتيمَ الأب تحت تلك السحابة من الصَّلاة غير المستَجابة.

في وقتٍ لاحق، بدأتُ أكتبُ مَقالاتٍ بعنوان "الدراما في الحياة الحقيقيَّة" لمجلَّة ريدرز دايجست (Readers Digest)، أُصوِّر فيها شخصيَّاتٍ نَجَتْ من

المأساة، وكنتُ في ذلك الوقت قد صرتُ صحافيًّا شابًّا في العمر الذي تُوُفِّيَ فيه والدي تقريبًا. مرَّةً تلوَ الأُخرى، كنتُ أسمعُ من الأشخاص الذين أجريتُ معهم مقابلةً بأنَّ المسيحيِّين "جعلوا الأمرَ أسوأ" من خلال تقديم مشورةٍ مُتناقِضةٍ ومُربِكة. إنَّ الله يعاقبُك. كلَّا بل هو الشَّيطان! لا هذا ولا ذاك. لقد ابتَلاك الله بهذا بدافع المحبَّة وليس عقابًا لك؛ لأنَّك اخترْتَ لتُظهِرَ الإيمانَ في حياتك. كلَّا، مشيئة الله لك أن تُشفى.

لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن كيفيَّةِ الردِّ على هؤلاء الناس، وكنتُ أنا في الحقيقة محتاجًا إلى إجاباتٍ لنفسي أيضًا. عندما كنتُ أواجهُ سؤالًا مُربِكًا ومحيِّرًا، كنتُ أميلُ إلى الكتابة عنه لأنَّ عمليَّة الكتابة كانت تُتيحُ لي الفرصةَ للتوجُّه إلى الخبراء والمكتَبات والكتاب المقدَّس بحثًا عن أجوبة. ونتيجةً لذلك، كتبتُ كتابي الحقيقيَّ الأوَّل في سنِّ السابعة والعشرين: "**أين الله عندما أتألَّم**" *(Where Is God When It Hurts)*.

ورُغم أنِّي كتبتُ حولَ العديد من المواضيع الأُخرى، فإنَّ هذا السؤال الذي خيَّم على طفولتي وهَيمنَ على بدايات مهنتي في الكتابة لم يَغِبْ قَطّ. لا أزال أتلقَّى سيلًا مستمرًّا من ردود الفعل من أناسٍ دمَّرهم الألم والمعاناة. منذ فترةٍ قريبة، أخرجتُ جميعَ الرسائل التي تلقَّيتُها من أشخاصٍ آخرين كانوا يعانون بسبب السؤال نفسه- أكثر من ألف رسالة. عندما قرأتُها ثانيةً تذكَّرتُ أنَّ الألم يُمثِّلُ خلفيَّةً ثابتةً لحياة كثيرين. يتعايَشُ بعضُ الناس مع المرض أو الألم الجسديِّ المزمن، أو مع لعنةِ مشاعر الوَحدة بينما يُعانونَ الاكتئاب. ويغمُرُ الحزنُ المستمرُّ قلوبَ آخرين نتيجةَ قلقهم على أحبَّائهم: شريكُ زواجٍ يصارعُ الإدمان؛ أولاد يسلكون طريقًا يؤدِّي إلى دَمارهم؛ أحَدُ الوالدَين يعاني مرضَ الزهايمر. وفي بعض أجزاء العالم، يعاني المواطنون العاديُّون يوميًّا الفقرَ والظُّلمَ.

في إحدى الرسائل التي تلقَّيتها، عبَّرَتْ فتاةٌ في السادسةَ عشرةَ بوُضوحٍ عن أحَدِ الأسئلة الأكثر إلحاحًا، وكانت تدرسُ التَّحليل الجنائيَّ لمواصَفات الجاني:

> كنتُ أدرسُ جرائمَ القتل. واطَّلعتُ على حالِ الضحايا وأُسرهم والآلام المبرِّحة التي احتَملوها والتي لا يمكن تخيُّلُها. أنا لا أتحدَّثُ بشأن الشُّهَداء أو المُرسَلين الذين عرَّضوا حياتَهم بمَحْضِ اختيارهم للمَخاطر من أجل إيمانهم، بل بشأن الضَّحايا المطمئنِّين- ضحايا الجرائم الجنونيَّة. أنا أومن بأبٍ سماويٍّ يُحبُّ أولادَه ويتمنَّى الخيرَ لنا جميعًا. ورُغمَ أنِّي لا أومنُ بأنَّ الله جعلَ هذه الأمور تحدُثُ لهؤلاء الأشخاص، فإنَّ صراعي مع إيماني يدورُ حول السبب الذي جعلَ الله لا يتدخَّل في حين كان في وُسعِه أن يساعدَهم. لذا سؤالي هو التالي: إذا لم يحمِ الله هؤلاء الناس والأطفال الأبرياء الذين تعرَّضوا للتَّعذيب (في حين أنَّ بعضَهم حتَّى صَرَخوا إلى الله ليُخلِّصهم)، كيف يكون لديَّ إيمانٌ بأنَّ الله سيَحميني؟ أنا أريدُ أن أومنَ، لكنِّي أشعرُ كما شعرَ الرَّجُلُ في الكتاب المقدَّس الذي قال ليسوع: "أُومنُ يا سيِّد، فأَعِنْ عدمَ إيماني".

ويعودُ السؤال

كان لي بعضُ التجارب الشخصيَّة مع الألم- كسورٌ في العظام، عمليَّات جراحيَّة ثانويَّة، حادث سيَّارة هدَّد حياتي- لكنِّي تعلَّمتُ أكثرَ من ذلك بكثيرٍ من خلال الاستماع إلى قصص الآخرين. عندما كانت زوجتي تعملُ مرشدةً دينيَّة في

مركَزِ رعاية المحتَضَرين، كانت تسرد كثيرًا الأحاديثَ التي تبادلَتْها مع العائلات التي صارَتْ قادرةً على تقبُّلِ الموت. كنَّا نتناولُ الطعامَ مُتبَّلًا بالدُّموع. وبصفتي صحافيًّا، كنتُ أستمعُ إلى قصصٍ مُفجِعةٍ من آخرين كُثُر: والدَين حزينَين على انتحار ابنهما المبتَلى بالمثليَّة الجنسيَّة، راعي كنيسةٍ يتحمَّلُ بشكلٍ مستمرٍّ نَوباتِ مَرَض تصلُّب العضل الجانبيِّ الضموريّ (Amiotrophic Lateral Sclerosis)، ومسيحيِّين صينيِّين يعيشون مرَّةً أُخرى وحشيَّةَ الثَّورة الثقافيَّة.

لأنِّي أُعاودُ التطرُّقَ باستمرارٍ إلى مَوضوع المعاناة، يُطلَبُ منِّي في بعض الأحيان أن أتحدَّثَ بشأن السؤال المطروح في كتابي الأوَّل: "أين الله عندما أتألَّم"، لن أنسى اليومَ الذي أجريتُ فيه جولةً على النُّصُب التذكاريَّة البديلة المقامة، مثل الزُّهور البرِّيَّة في الحَرَم الجامعيِّ لجامعة ڤيرجينيا للتكنولوجيا (Virginia Tech)، ثمَّ وقفتُ أمام ألفِ طالبٍ، يا إلهي، كانوا شبابًا صغارًا بوُجوه سلخَها الحزن والألم على فقدان ثلاثة وثلاثين من زملائهم وأساتذتهم. أو مشهدٍ غريبٍ مماثلٍ في العام التالي عندما كنتُ أعتزم التحدُّث بموضوعٍ لا علاقةَ له بمدينة مومباي (Mumbai) الهنديَّة، إلى أن وقعَ الهجومُ الإرهابيُّ على فندق تاج محل وغيره من المواقع، ممَّا اضطُرَّني إلى تغيير المكان وتغيير الموضوع- العَودة ثانيةً إلى السؤال الذي لا يغيب.

في سنة ٢٠١٢م، تحدَّثتُ إلى مجموعاتٍ بشأن هذا السؤال ثلاثَ مرَّاتٍ في أكثر الأحوال تَرويعًا. تَلَتْ إحدى المرَّات كارثةٌ طبيعيَّةٌ مأساويَّة؛ وإحداها جرَتْ في مدينةٍ دُمِّرت بسبب الحرب، وثالثةٌ كانت الأقربَ إلى حيثُ أُقيم، وكانت الأكثرَ إثارةً للمشاعر بالنِّسبة إليّ.

في آذار/مارس وقفتُ أمام رعيَّة كنائس إقليم توهوكو (Tohoku) في اليابان

في الذكرى الأولى للتسونامي الذي ضربَ الأرضَ بسرعةِ طائرةٍ نفَّاثة مقطِّعًا قضبانَ سكَّة الحديد كأنَّها عيدانٌ رفيعة، كما بعثرَ السُّفنَ والحافلات والبيوت، بل حتَّى الطائرات عبر المشاهد الطبيعيَّة المدمِّرة. في أعقاب ذلك؛ وبوفاة ١٩,٠٠٠ شخص، وانجراف قرى بأكملها إلى البحر، فإنَّ هذه الأمَّة العَلمانيَّة المنشغلة، التي لم يكُنْ لديها الوقت عادةً لطَرْح أسئلةٍ لاهوتيَّة، لم تفكِّر إلَّا في هذا السؤال.

وفي تشرين الأوَّل/أكتوبر، تحدَّثتُ بشأن السُّؤال في سراييفو (Sarajevo)، وهي مدينة لم يكن فيها طَوالَ أربع سنوات تدفئة أو وقود أو كهرباء، كما توافرَ فيها القليل من الطعام والماء، في حين كانت تعاني أطوَلَ مدَّة حِصارٍ في الحروب الحديثة. لقي عشرةُ آلاف من المقيمين فيها حتفَهم من وابلٍ يوميٍّ من طلقات القنص وقنابل الهاون التي سقطت من السماء مثل البَرَد. قال لي أحد الناجين: "إنَّ أسوأ ما في الأمر أنَّك تعتادُ الشَّرّ. فَبِمُرور الوقت، يتوقَّفُ المرءُ عن الاهتمام بما يجري. إنَّك تحاوِلُ فقط أن تبقى حيًّا".

في أواخر عام ٢٠١٢م، قبلتُ أكثرَ المَهامِّ صعوبةً على الإطلاق، ليس بالنِّسبة إلى كمِّ المعاناة- وهل يمكن أصلًا تحديد حجمها؟- بل بالنِّسبة إلى شدَّة الرُّعب الهائل والحزن العميق. وفي عطلة نهاية الأسبوع بعد عيد الميلاد خاطبتُ مواطني نيوتاون (Newtown) في ولاية كونكتيكت (Connecticut)، وهي بلدة تترنَّح من ذَبْح عشرين طالبًا وطالبةً في الصفِّ الأوَّل الابتدائيِّ وستَّةٍ من المعلِّمين والموظَّفين، وهي جريمة نُفِّذَتْ دون أدنى حسٍّ إنسانيّ.

عبَّر سائقُ سيَّارة الإسعاف عن الحالة النفسيَّة فقال: "نحن جميعًا نعمل متطوِّعين في فريق الإسعاف والإطفاء. شاهدتُ أمورًا فظيعة، لكنَّنا لا

نتدرَّبُ لمواجَهةِ حالات كهذه- لا أحَدَ يفعل هذا. زوجتي معلِّمةٌ في مدرسة ساندي هوك (Sandy Hook) الابتدائيَّة. كانت تعرفُ جميعَ الأولاد العشرين بأسمائهم، فضلًا عن المدرِّسين. كانت على بُعدِ ثلاثِ خطواتٍ وراءَ المديرة دَون هوكسبرنغ (Dawn Hochsprung)، عندما صرخت دَون «تراجَعي، إنَّه قنَّاص!» بعدَ أنِ اختبأتْ في أثناء المذبحة، اضطُرَّت إلى المرور بين أجساد زملائها في الممرّ. وكذلك أجساد الأطفال...".

صمتَ قليلًا ليُسيطرَ على صَوتِه ثمَّ تابع: "يختبرُ الجميعُ الحزنَ والألم في مرحلةٍ ما- في أسوأ الحالات، الحزن الرهيب من جرَّاء فقدان طفل. وأنا أرى تأثيرَه في دَوري بصفتي أوَّلَ متلقٍّ للحَدَث، لا سيَّما بعد حالاتِ الانتحار. يتعايشُ المرءُ مع الحزن والأسى كما لو كانَ في فقَّاعة، ثمَّ يدخلُ العالم ثانيةً بالتَّدريج فحسب. تذهبُ إلى البقَّال، ثمَّ تعودُ ثانيةً إلى العمل. في نهاية المطاف، يسيطرُ عليك ذلك العالم الخارجيُّ أكثرَ وأكثرَ، ويبدأ الحزنُ في الانكماش. نحن هنا في نيوتاون مجتمعٌ صغير. إنَّ كلَّ مكانٍ نذهبُ إليه يذكِّرُنا بما حدث. نذهب إلى المتجر فنرى أمورًا تذكِّرُنا بالضَّحايا. نسير في الشارع فنرى علاماتٍ على شرفاتِ منازلِ الذين فقدوا طفلًا. لا يمكنُنا أن نتجنَّبَ هذا. إنَّ الوضعَ هو كأنَّ ناقوسًا زجاجيًّا وُضعَ فوقَ البلدة بعد تفريغه من الأوكسجين. لا نستطيعُ أن نتنفَّس ونعبِّرَ عن الحزن".

أتَتْ دَعوَتي إلى نيوتاون من صديقٍ عرفتُه لفترةٍ طويلة، وهو إنكليزيٌّ يُدعى كلايف كالفر (Clive Calver). كان يرأسُ جمعيَّة "شبابٌ للمسيح" (Youth for Christ) في سبعينيَّات القرن الماضي عندما كنتُ محرِّرًا في مجلَّة كامپس لايف (Campus Life) التابعة لجمعيَّة شباب للمسيح. ذهبَ كلُّ واحدٍ في طريقه، هو إلى أعمال الإغاثة، وأنا انطلقتُ لأمارسَ مهنتي بصفتي كاتبًا

حُرًّا. يرعى كلايف الآن كنيسةً مزدهرةً تضمُّ ٣٥٠٠ عضوٍ تقعُ على مشارف نيوتاون. قال لي في الأسبوع الذي سبقَ عيدَ الميلاد: ''يبدو الأمرُ كأنِّي كنتُ أتدرَّبُ طَوال حياتي لِلَعبِ هذا الدَّور. في هيئة الإغاثة العالميَّة (World Relief) كنتُ على رأس فريق الاستجابة للكوارث الذي يضمُّ ٢٠,٠٠٠ شخصٍ في جميع أنحاء العالم. لكنَّ الحيَّ الذي أُقيم فيه وأعضاء كنيستي هم الآن مَن تأثَّر بشكلٍ مباشر. جميعُهم يطرحون السؤالَ الذي كتبتُ عنه منذ سنوات: «أين الله عندما أتألَّم؟» هل يمكنُكَ أن تأتي وتتحدَّث إلينا؟''.

عيدُ الميلاد المكبوت

كان عيد الميلاد سنة ٢٠١٢م بالنِّسبة إليَّ لا يُشبِهُ أيَّ عامٍ آخر. كانت وفاةُ والدي في ١٥ كانون الأوَّل/ديسمبر تُخيِّمُ دائمًا روح الميلاد في منزل طفولتي، والآن ملأ إطلاقُ النار في ١٤ كانون الأوَّل/ديسمبر العطلةَ بالكآبة لأُمَّةٍ بأكملها. شعَرْنا بصدمةٍ قاسية. ما الخطأ فينا وفي أُمَّتنا؟ لا يستطيعُ أحَدٌ أن يفهمَ جيِّدًا كيف أنَّ شابًّا من خلفيَّةٍ متميِّزة يشقُّ طريقَه داخل مدرسة ويقتل بشكلٍ منهجيٍّ عددًا من طلَّاب الصفِّ الأوَّل المصابين بالهَلَع.

شاهدتُ تقاريرَ الأخبار ودرستُ الخطَّ الزمنيَّ دقيقة بدقيقة لما حدثَ في المدرسة الابتدائيَّة يَومها. قرأتُ على الإنترنت مواصَفاتِ كلِّ طفلٍ من الأطفال المتوفَّين، وفي أثناء ذلك، صرتُ أعرفُهم بالاسم فضلًا عن الوجه: كاثرين بشعرها الأحمر الفاقع، ودانيال بابتسامته التي تُظهر الفراغات ما بين أسنانه، وإميلي بعَينَيها الزرقاوَين المضيئتَين، وجيسي بابتسامتها الماكرة. قرأتُ عن حيواناتِهم الأليفة وهواياتهم والحِيَل التي يستخدمونها مع إخوتهم،

والأطعمة التي تولِّد الحساسيَّة لديهم، والشخصيَّات الرياضيَّة المفضَّلة لديهم. إنَّ الوفاة في عمر السادسة أو السابعة لا يزال يترك علاماته.

إنَّ ما سمعتُه في نيوتاون في عطلة نهاية الأسبوع تلك- القصص، الأسئلة، صرخات الارتباك والاحتجاج- أثارَتْ ذكرياتِ رُدودِ فعلٍ أُخرى للمعاناة التي كنتُ قد واجهتُها عبر السنوات. لماذا تقعُ الأمورُ السيِّئة؟ لماذا يسمحُ الله للشرِّ بأن يأخذَ مجراه؟ ما الأمرُ الجيِّد الذي يمكنُ أن يَنتُجَ عن مثل هذه الأحداث؟ لم يتوقَّفْ صراعي مع هذه الأسئلة منذ كتابي الأوَّل، وكنتُ مُضطرًّا إلى مواجَهةِ هذه الأسئلة ثانيةً عندما كنتُ أتحدَّثُ إلى أفرادِ مجتمع نيوتاون.

عندما توجَّهتُ إلى ولاية كونكتيكت، جعلَ الناشرُ كتابي "أين الله عندما أتألَّم" متاحًا للتَّحميل المجَّانيِّ لمدَّة محدودة. وضعتُ الرابط على الفيسبوك، وأصدرَ الناشرُ بيانًا صحفيًّا، لكنَّه لم يُعلنْ عن العرض. توقَّعنا بضعَ مئاتٍ من ردود الفعل، ربَّما ألفًا. بدلًا من هذا، وكما علمنا في ما بعد، حمَّل أكثرَ من مئة ألف شخصٍ الكتاب في غضون بضعة أيَّام. من الواضح أنَّه كانَ لدى الآخرين السؤالُ ذاته. وهكذا قرَّرتُ أن أضَعَ جانبًا مشاريعَ الكتابة الأُخرى وأعودَ إلى تَناوُل السؤال الذي استطلعْتُ تفاصيلَه قبلَ أكثرَ من ثلاثة عقود.

تباطأ مرورُ الشتاء في مرتفعات كولورادو (Colorado) بينما كنتُ أكتب. وحتَّى نيسان/أبريل ٢٠١٣م، كنتُ أستطيعُ أن أرى من خارج نافذتي مشهدًا من الجمال المذهل: أشجارٌ دائمةُ الخُضْرة مكسوَّةٌ بالثَّلج المتساقط حديثًا، وقد صبغَتْها أشعَّة شمسِ الصباح بلَونٍ ذهبيّ، ترفعُ هامتَها لتواجهَ سماء كولورادو التي تحاكي بِلَونها مياهَ المحيطات الاستوائيَّة. ومن ثمَّ كنتُ أستجمع وجوهَ الكَرْب والعذاب التي رأيتُها في اليابان وسراييفو ونيوتاون.

فجأةً، انضمَّتْ إليهم مجموعةٌ جديدةٌ من الوجوه. في ١٥ نيسان/أبريل، أفسدَ مهاجِران يومَ الفرح والانتصار في بوسطن بزرعهما قنابلَ قُرْبَ خطِّ النهاية لماراثون بوسطن. هذا السباق الذي انطلَقَ بشكلٍ كئيب بستٍّ وعشرين ثانيةً من الصمت تكريمًا لضحايا نيوتاون، انتهى بمأساةٍ لا تُوصَف. وُضِعَت المدينة الخامسة في البلاد من حيث الحجم تحت التقييد بينما كان رجال الشرطة يبحثون عن الإرهابيَّين اللذَين قتلا ثلاثةَ أشخاصٍ وجرحوا المئات. بعد يومَين انفجرت منشأة للسَّماد الكيماويِّ في بلدة وست (West) في تكساس، ممَّا أسفر عن مقتل عشرةِ إطفائيِّين وخمسة آخرين، وهي كارثةٌ نالَتْ تغطيةً إخباريَّةً قصيرةً بسبب المطاردة الواسعة النِّطاق التي كان تجري في بوسطن. لاحقًا في الأسبوع ذاته، ضربَ زلزالٌ مقاطعة سيشوان (Sichuan) في الصين وقتلَ مئتَي شخصٍ تقريبًا وألحقَ الضَّررَ بأكثر من ثمانيةِ آلاف. من الواضح أنَّ السؤالَ المُثارَ عام ٢٠١٢م لم يَغِبْ في عام ٢٠١٣م.

يمكنني أن أكتبَ في الواقع عن هذا السؤال في أيَّةِ سنةٍ كانت؛ لأنَّنا نعيش في كَوكبٍ هشٍّ يشوبُه المرضُ والفيضانات والجفاف والزلازل والحرائق والحروب وأعمال العنف والإرهاب. وسواء كانت المعاناة مأساويَّة أم عاديَّة، فإنَّها تتربَّصُ بنا من قرب. في كلِّ يومٍ أتسلَّم تقريرًا من موقع www.caromgbridge.com بشأن صديقٍ مرتبطٍ بآلةِ حِفْظِ الحياة في المستشفى، أو آخرُ يتعافى من سكتةٍ دماغيَّةٍ أو يُصارع السرطان. ما الذي يهدفُ إليه الله في عالمٍ كهذا؟

أنا أدركُ جيِّدًا أنَّه لا يوجدُ كتابٌ يستطيع أن "يحلَّ" مشكلة الألم. لكنِّي أشعر بأنِّي مجبَرٌ على مشاركة الآخرين ما تعلَّمتُه من أرض المعاناة. إذا كانت لدى المسيحيِّين أخبارٌ سارَّةٌ يشاركونها- رسالةُ رجاءٍ أو تعزيةٌ ما لعالَمٍ جريح- فلا بدَّ أن تبدأ هنا.